هيثم بن طارق بين الداخل والخارج

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ألقى سلطان عُمان الجديد هيثم بن طارق خطابا تأسيسيًا في ذكرى أربعين السلطان قابوس الذي توفّي في العاشر من كانون الثاني – يناير الماضي. إنّ دلّ الخطاب على شيء، فهو يدلّ على وجود شخص يقف على رأس السلطة في عُمان يعرف تماما ما المطلوب داخليا من أجل متابعة مسيرة سلفه التي بدأت قبل خمسين عاما. لا يمكن تجاهل الدور الذي لعبه السلطان قابوس في نقل سلطنة عُمان إلى مكان آخر، من بلد متخلّف منغلق على نفسه في عهد والده، السلطان سعيد بن تيمور، إلى بلد منفتح على العالم يمتلك دار أوبرا ومدارس وجامعات وبنية تحتيّة متطورة، تحاول السلطة فيه، بتوجيه من قابوس نفسه، تهذيب ذوق المواطن من الجنسين بكل الوسائل الممكنة، بما في ذلك تعويده على تقدير أهمّية الموسيقى الكلاسيكية.

هل ستكون هناك تغييرات في مجال السياسة الخارجية التي تحتاج إلى إعادة نظر في جوانب معيّنة من منطلق أن الدور الإقليمي مهمّ، ولكن لا وجود لدور من أجل الدور ومن دون تحديد للهدف من هذا الدور

صحيح أن الخطاب تطرّق غير مرّة إلى الدور الذي لعبه قابوس في بناء بلد حديث، وذلك ابتداء من العام 1970، إلا أن الصحيح أيضا أن هيثم بن طارق لم يتجاهل وجود تحدّيات تواجه السلطنة داخليا إنْ على صعيد بناء الإنسان أو على صعيد التعليم أو على صعيد الارتباط بكلّ مجالات التقدّم العلمي في هذا العالم، بما في ذلك الذكاء الاصطناعي.

كان لافتا في الخطاب التركيز على الداخل. مقطع صغير، غلبت عليه العموميات أكثر من أيّ شيء آخر، تحدّث عن السياسة الخارجية للسلطنة التي عرفت دائما كيف تميّز نفسها، خصوصا بسبب قربها الجغرافي من إيران من جهة، وتقاسمها معها التحكّم بمضيق هرمز الاستراتيجي من جهة أخرى.

اكتفى سلطان عُمان الجديد بالقول "لقد عرف العالم عُمان عبر تاريخها العريق والمشرّف، كيانا حضاريا فاعلا ومؤثرا في نماء المنطقة وازدهارها، واستتباب الأمن والسلام فيها، تتناوب الأجيال على إعلاء رايتها، وتحرص على أن تظل رسالة عُمان للسلام تجوب العالم، حاملة إرثا عظيما، وغاياتٍ سامية، تبني ولا تهدم، وتقرّب ولا تباعد، وهذا ما سنحرص على استمراره، معكم وبكم، لنؤدي جميعا بكل عزم وإصرار دورنا الحضاري وأمانتنا التاريخية".

إنّه مقطع صغير يقول الكثير بسبب الكلام العام الوارد فيه عن رغبة عُمان في الابتعاد عن أي مشاكل، ولعب دور المصلح والوسيط. هل يعني ذلك أن عُمان في عهد هيثم بن طارق في صدد بلورة سياسة خارجية قد تختلف، ولو قليلا، مع سياستها التقليدية التي جعلت منها دولة تسير وفق نهج خاص بها؟ أم أنّ عُمان متمسكة بالاعتبارات التي جعلتها في أحيان كثيرة تتبع سياسة خاصة بها في إطار مجلس التعاون لدول الخليج العربية، أو في إطار السياسة الخاصة بإيران... أو في الإطار العربي. على سبيل المثال وليس الحصر، كان لسلطنة عُمان موقف خاص بها من رحلة أنور السادات التاريخية إلى القدس في العام 1977، ومن توقيع اتفاقي كامب ديفيد في خريف 1978، ومن معاهدة السلام المصرية – الإسرائيلية في آذار – مارس من العام 1979... ومن مقاطعة العرب لمصر في تلك المرحلة.

تكمن أهمّية الخطاب في أن الرجل الذي كلّفه السلطان قابوس بوضع رؤية 2040، يعرف تماما أن هناك إدارة عُمانية ترهلت في السنوات الثلاثين الأخيرة. جاء الترهّل على الصعيد الداخلي في ظلّ دور نشط على الصعيد الخارجي. هناك حتّى انفتاح عُماني لا سابق له على إسرائيل. توّج هذا الانفتاح بزيارة بنيامين نتنياهو لمسقط في العام 2018. كشفت هذه الزيارة قدرة عُمان على استقبال نتنياهو وأن تسبق اسمه عبارة "دولة الرئيس" من دون صدور أي ردّ فعل عن إيران أو عن أدواتها مثل "حزب الله".

من الواضح أنّ هيثم بن طارق رجل واقعي. إضافة إلى ذلك، يعرف العالم الخارجي جيّدا. يعرف معنى العلم والثقافة وأهمّيتهما. لذلك اختاره السلطان قابوس خليفة له كي يتابع المسيرة وإن كان ذلك على طريقته.

ما لا بدّ من تذكّره هذه الأيّام أن السلطان قابوس نقل إلى السلطنة التجارب الحضارية التي لمسها لمس اليد، خصوصا لدى تلقيه دراسته في بريطانيا التي كان ينتقل إليها بالباخرة عن طريق ميناء عدن. لدى هيثم بن طارق خبرته أيضا في هذا المجال. إنّه يعرف أنّ أجهزة الدولة لم تعد كما كانت عليه في الماضي، وأن الدور الخارجي لسلطنة عُمان، بما في ذلك دورها الفريد من نوعه في اليمن الذي يشمل إقامة علاقة خاصة مع الحوثيين، لا يعوّض عن التراجع في الداخل، خصوصا على الصعيد الاقتصادي.

وضع السلطان قابوس في السنوات العشرين الأولى من حكمه الأسس لدولة وإدارة حديثتين. في السنوات الثلاثين الأخيرة كان هناك إصرار على السير حسب هذه الأسس التي صارت في حاجة إلى تحديث وإلى رجال جدد يمتلكون روحا ديناميكية وقدرة على أخذ المبادرة. هناك عالم تغيّر ولم يعد في الإمكان البقاء في أسر مفاهيم الماضي التي كانت تصلح لسبعينات القرن الماضي وثمانيناته.

ما يعطي فكرة عن السلطان الجديد قوله في خطابه إنّه "من أجل توفير الأسباب الداعمة لتحقيق أهدافنا المستقبلية، فإننا عازمون على اتخاذ الإجراءات اللازمة لإعادة هيكلة الجهاز الإداري للدولة، وتحديث منظومة التشريعات والقوانين وآليات العمل وإعلاء قيمه ومبادئه وتبني أحدث أساليبه، وتبسيط الإجراءات وحوكمة الأداء والنزاهة والمساءلة والمحاسبة (...)".

لا يمكن الاستخفاف بفكرة "إعادة هيكلة الجهاز الإداري للدولة". أن يشير سلطان عُمان إلى ذلك وإلى "قيم العمل" يؤكّد وجود رغبة في الاستفادة إلى أبعد حدود من كلّ ما تحقّق في عهد قابوس، والعمل في الوقت ذاته على تطويره. فالأمر الذي لا شكّ فيه أنّ سلطنة عُمان لم تستطعْ في السنوات الأخيرة اللحاق بركب التقدّم على صعيد الاقتصاد وتوفير الخدمات في المنطقة. لم تستطع ذلك على الرغم من امتلاكها كلّ ما يمكن أن يكرّس دورها الطليعي الذي صنعه السلطان قابوس.

هناك عهد جديد في سلطنة عُمان. عهد رسم ملامحه السلطان الراحل باني الدولة الحديثة في ظروف كانت في البداية في غاية الصعوبة استطاع التغلب عليها. من هذا المنطلق، يبدو عهد هيثم بن طارق عهدا واعدا على الصعيد الداخلي مع سؤال في غاية البساطة: هل ستكون هناك تغييرات في مجال السياسة الخارجية التي تحتاج، هي الأخرى، إلى إعادة نظر في جوانب معيّنة من منطلق أن الدور الإقليمي مهمّ، ولكن لا وجود لدور من أجل الدور ومن دون تحديد للهدف من هذا الدور؟

مصر وقد فاتها تأهيل ثلاثي ضروري للنهضة

سعد القرش
روائي مصري

يمرّ أغلب المصريين حاليا بدرجات من اكتئاب عام يُلزمهم الصمت، وإذا تكلموا أعلنوا عن الرغبة في الهجرة. لعله اكتئاب ما بعد نصف ثورة، أو شعور قاهر باللاجدوى في ظل إجراءات ما بعد 3 يوليو 2013، وتحوّل الحلم بالتغيير إلى خيبات أمل تتشابه في النوع وتختلف في الدرجة. حتى شركاء 30 يونيو 2013 يشملهم هذا الإحساس، وهم يرون إجراءات الانتقام والإقصاء تتأرجح بين الخشونة والنعومة، لينتهي المشهد الكابوسي بما يشبه "ظهور اللوياثان"، وفقا لرؤية حيدر حيدر في روايته "وليمة لأعشاب البحر".

كانت روح ثورة 25 يناير 2011 فرصة ذهبية لتعويض مصر عمّا فاتها من تأهيل ثلاثي ضروري لبناء "الدولة". تأهيل العسكريين على الخيال قبل احتراف (أكاد أقول اقتراف) السياسة، وتأهيل المتشبّعين بالقيم القروية والعشائرية والقبلية على روح القيم المدنية، وتأهيل المتطرفين الدينيين على قبول التنوع البشري والديني والمذهبي.

اعتاد الصنف الأول مفهوم التوحّد بالسلاح، وهو آلة صمّاء، أقصد السلاح بالطبع، لأنه وسيلة قتل تستهدف عدوا ليس له اسم أو ملامح. ولا يملك حامل السلاح ترف الاعتراض على أمر، وبحكم التراتب وسرية المعلومات لا يحتاج القائد إلى التوسل بالديمقراطية حين يصدر أمرا إلى من هم أدنى درجة. هذه القواعد المترسّخة في العسكريين، منذ مطلع شبابهم مع التحاقهم بالكليات ثم انتقالهم إلى المعسكرات، تنتقل معهم بعد عقود من الخدمة العسكرية إلى الأعمال المدنية ذات الطبيعة السياسية. فهل يقبل شخص أمضى عمره في تلقّي الأوامر وإصدارها أن يناقشه مواطنون تتباين احتياجاتهم وثقافاتهم ومداركهم؟ وإلى أي درجة يعي أن القواعد العسكرية الصارمة لا تلائم مرونة الحياة المدنية ما لم يمرّ بفترة تأهيل تشبه، إلى حدّ ما، اجتياز الضباط لدورة تدريبية، قبل الحصول على درجة "أركان حرب"؟ وبهذا التأهيل يتخلّى العسكريون عن احتكار المطلق الوطني لحساب النسبية السياسية.

أما الصنف الثاني فلديه وهم احتكار الأخلاق، بمفهومها الشخصي الجسدي التقليدي الضيق، وهو محكوم بعادات وقيم تختلف عن سمات الحياة المدنية. مدينة مثل القاهرة تعاني شيخوخة معمارية وبشرية بعد عقود من ترييف يحاصرها بسياج من أحياء فقيرة تعيش على الحد الأدنى من الخدمات والأقصى من القيم القديمة. كما اخترق هذا الترييف روح المدينة العجوز، وتسلل إلى المفاصل والشرايين والمناصب، بما فيها رئاسة الدولة. ومن تجلّيات هذا الترييف المباهاة الساذجة من الرئيس الأسبق أنور السادات بأخلاق القرية، والإلحاح على أنه "كبير العائلة"، وأن يتحمس شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب بحسن نية لكيان اسمه "بيت العيلة" لفضّ النزاعات الدينية في مجالس عرفية. والطقوس العرفية لا تخضع للقانون، وتجور على حريات فردية تتآكل في السياق العشائري، وهكذا ينمو فضول فضائحي يمتدّ من وصاية حارسي البنايات، إلى إجرام مقدّمي برامج فضائية تغذيها تسريبات تليفونية ومصورة؛ لابتزاز الخصوم السياسيين. وليست الحريات الشخصية ترفا، وإنما هي حقوق إنسانية أساسية، وقيم دالة على الارتقاء الأخلاقي، وتحكم على مقدار حظ الإنسان من الإنسانية، فيترفّع عن التلصّص على الآخرين، ويتعفف عن مراقبة أفعالهم. ولك أن تقارن بين سائق من جنوب شرقي آسيا مرحّب به في الخليج؛ لأنه يعي أنه مجرد سائق، وآخر مصري يستبد به حب الاستطلاع، ويشغل نفسه بتقصّي كل شيء حوله، والتطوّع بالإجابة عن أسئلة لم توجه إليه، وآخر ما يتذكره أنه سائق.

الصنف الثالث أكثر خطورة من السابقيْن؛ فهو يحتكر المطلق الديني الذي يبتلع ما هو وطني وما هو أخلاقي. وقد نشأ أفراده على اليقين بأنهم الفرقة الناجية، وتسلحوا بفقه بشري يسمو في قلوبهم إلى منزلة اليقين، وبقفزة صغيرة يسهل أن ينتقلوا من التشدد الذهني إلى الغلوّ الفكري فالإرهاب السلوكي، وهم يوقنون بأنهم يتقربون إلى الله ولو بإراقة دماء أبرياء. هؤلاء أكثر خطورة لأن لديهم خطابا نظريا تتأسس عليه أفعالهم، ويبدأ التأهيل بخلخلة القيم المعرفية القديمة وتقويض هذا اليقين. وبهذه المجاهدة ينشأ فراغ نفسي، ورغبة في تأسيس الوعي البديل، بأناة وحكمة ومحبة تنأى عن التطاول والاستعلاء، وإنما تقيم جسورا نحو حياة مدنية يتجاور فيها المسلم وغير المسلم، ويتعاون فيها الجميع على إعمار الأرض، حيث لا مكان ولا وظيفة لشيخ يقرر من يذهب إلى الجنة ومن يُقذف به في النار، ويتصالحون مع حقيقة أن حساب البشر عند الله الذي لم يوكل محاسبة الناس إلى أحد بمن فيهم الأنبياء، وأن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة.

التربية المذهبية، أو الطائفية الإخوانية، تخلق أحيانا إنسانا أحاديا مستعدا للعنف، ضائق الصدر بالآخرين، لم يجرّب الانخراط في حياة مدنية، ولم ينعم بسلام نفسي، ففي رأسه حرب على العالم، ينتظر إعلانها لوصل حاضره بماضي الفتوحات، لكي يزهو بقتال الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، ويكون الرزق تحت ظلال الرماح. بهذا الطموح الإيماني يفارق الشاب أسرته، ويزهد في دراسته، ويغادر وطنه إلى أرض تتيح له شرف الجهاد في ما يتخيّل أنه سبيل الله، ويفرح بميلاد جديد يترجم فيه النصوص إلى ساحات معارك تفتح له أبواب الجنة.

روح ثورة 25 يناير كانت فرصة لتعويض مصر عمّا فاتها من تأهيل ثلاثي لبناء الدولة. تأهيل العسكريين على الخيال قبل احتراف السياسة، وتأهيل المتشبّعين بالقيم القبلية على روح القيم المدنية، وتأهيل المتطرفين على قبول التنوع

لا صبر للكثيرين على المكاره، أو على الفضائل، وليس أفضل من نزع السموم الطائفية من دماء الذين نشأوا على الكراهية. وليس من الحكمة إعلان الحرب على الإرهابيين وتجاهل أسباب الإرهاب، وكل إجراء أمني إزاء الشبان المتشددين يزيدهم تطرفا، ويمنحهم ثقة بأنهم على الحق المبين، وكم أسهمت المعتقلات في جعل متشددين مذبذبين إرهابيين عتاة، ولعلّي شرحت هذا الأمر في مقال عنوانه "رفقا بضحايا جنة الإخوان واليقين"، نشرته صحيفة "العرب" في 14 فبراير 2014، وبمراجعته يتأكد لنا أن بضع سنوات ذهبت سدى، فمازلنا نكرر الخطاب نفسه، كأننا نعزّي أنفسنا بكلام لا يسمعه أحد سوانا.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk